أبو الفرج بن الجوزي
ومنهجه في التفسير

تأليف

دكتور
علي حسن محمد سليمان
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين

مقدمة

الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، واختصه بضروب النعم وألوان التكريم وأغدق عليه المنن والعطايا ، وأفاض عليه من أسراره وبث فيه من أنواره ما جعله أهلا للاستخلاف فى الأرض ، يفقه الحكمة بوعيه ، ويعمر الكون بسعيه ويكافح الشر بجهاده ·

والصلاة والسلام على رسول الله ـ الناصح الأمين ـ قاد البشرية بمنهج الحق قيادة رشيدة ووضح معالم الوحى هداية وبيانا للناس ، وترجم معانى القرآن السامية الى سلوك وواقع عملى ·

وعلى آله وأصحابه الذين اقتدوا به أحسن اقتداء وتمثلوا منهج القرآن فجعلوه أسوتهم فاستقامت المسيرة الحميدة على صراط الله المستقيم ·

قال تعالى : **« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »**(١) ·

وبعد :

فإن دراسة منهج مفسر من المفسرين هو المحاولة الرشيدة للوقوف على الطرق والسبل التى اتبعها المفسر فى تفسيره لأنها تبرز الخصائص والمعانى القرآنية وتحدد اتجاهه إلى التفسير بالمأثور أو الرأى أو كليهما أو غيرهما وتبين أسلوب القرآن السهل الواضح الذى لا صعوبة فيه ولا التواء ولا تعقيد تصعب معه الترجمة إلى واقع حى ملموس وذاك سر من أسرار الحكيم الخبير سبحانه ، حتى يظل دائما فى مرقاه العالى ، منارة إرشاد ، كلما تاهت البشرية أو ضلت طريقها وجدت النور الذى يضىء لها الحياة ·

---

(١) سورة ابراهيم : آية ١ ·

ولقد أعجبت بواحد من هؤلاء المفسرين واستهوتنى دراسة شخصيته ألا وهو الامام ابن الجوزى . وذلك لما اتصف به من صفات كثيرة ، كانت محل إعجاب من عاصره أو قام بدراسة عنه ، فقد كان من أكبر المؤرخين فى عصره الذين كتبوا التاريخ بأمانة وصدق ، رغم التيارات والفتن التى اجتاحت عصره ، وقد كان ابن الجوزى : كذلك إماما فى الحديث وقد أطلق عليه لقب (الحافظ) مما يدل على مكانته وتمكنه، وكان محدثا وواعظا ومفسرا ، حتى أنه قد فسر القرآن الكريم على منبر وعظه وكان أديبا وله بعض الأشعار ، وقد أكثر من التصانيف مما لم يقم به عالم قبله أو محدث أو فقيه ، وقد اختلف المؤرخون فى عدد تصانيفه ما بين الثلاثمائة والأربعمائة مصنف(٢) .

وهذا هو الدافع لدراسة هذه الشخصية ومحاولة الوقوف على بعض الملامح والصفات التى كان يتحلى بها صاحب هذه المصنفات العديدة(٣) ومعرفة التيارات والفتن التى كانت سائدة فى ذلك العصر الذى عاش فيه .

والله العلى القدير - أسأل أن يوفقنى - فى نقل صورة حية عن هذا العلم الفذ والشخصية الفريدة ، والله الموفق إلى ما فيه الخير .

د/ على حسن محمد سليمان

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٨/١٣ .

(٣) شذرات الذهب ٣٣١/٤ .

الفصل الأول

نشأ الحافظ ابن الجوزى فى بيئة كان لها الأثر البالغ فى تكوين شخصيته ·

أسرته :

كان أهله تجارا يعملون فى النحاس ، لذلك يوجد فى بعض سماعاته القديمة ابن الجوزى الصفار(١) ·

وقيل : أن والده كان يعمل الصفر بنهر القلائين(٢) ، مات والده وله من العمر ثلاث سنوات فكان يتما مبكرا بالنسبة له ، ولكن ذلك لم يؤثر عليه من الناحية المادية ، فالأسرة كانت على جانب من الثراء لا تحتاج فيه إلى أن تجعله يتعلم صنعة أو حرفة يقتاتون منها ، فكانت الهمة منصرفة إلى طلب العلم ، وبذل الجهد فى تحصيله ·

أما والدته فقد ظلت على قيد الحياة ومات قبلها بأيام ، وتولى رعايته بعد أبيه عمه أبو البركات الذى حمله إلى الحافظ أبى الفضل ابن ناصر لتسميعه الحديث ·

وقيل : أن عمته هى التى حملته الى ابن ناصر وقرأ عليه(٣) ·

وكان لابن الجوزى ثلاثة أخوة وأختان أولهما عبد الله وعبد الرازق والثالث محمد ، أما الأختان فقد شاركته احداهما فى التلمذة على بعض شيوخه(٤) ·

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة : جـ ١ ص ٤٠١ ·

(٢) مرآة الجنان : جـ ٣ ص ٤٩٢ ·

(٣) البداية والنهاية : جـ ١٣ ص ٢٩ ·

(٤) التكملة : جـ ١ ص ١٨٥ ·

ولابن الجوزى أبنـاء ثلاثة : عبد العزيز وهو أكبرهم مات شابا فى حيـاة والده ، ثم أبو القاسم على وقد كان عاقا لوالده ألب عليـه فى زمن المحنـة وغيرها ، وقد تسلط على كتبه فى غيبته بواسط فباعها بأبخس الأثمان ، ثم محيى الدين يوسف وكان أنجب أولاده وأصغرهم ووعظ بعد أبيـه ، ثم باشر حسبة بغداد ، ثم صـار رسول الخلفـاء إلى الملوك بأطـراف البلاد ، ثم صـار أستاذ دار الخليفة المستعصم ، وكان لأبى الفـرج عدة بنات منهم : رابعـة أم سبطة أبى المظفر صاحب مـرآة الزمـان(٥) .

وخلاصة القول : أن أسرة ابن الجوزى كانت من الأسر التى تهتم بالعلم والمعـرفة ، فقد أسهم ابن الجـوزى هو وأبناؤه فى بناء الفكر العـربى والاسلامى وامداد المكتبة العربية بكل ما هو نافع ومفيد .

مـولده ونشـأته :

هو جمال الدين أبو الفـرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على القـرشى التيمى البكرى (من ذرية أبى بكـر الصديق) الفقيـه الحنبلى الحافظ المفسـر الواعظ المؤرخ الأديب المعروف بابن الجوزى(٦) وعرف بابن الجوزى نسبة إلى جده الأكبر جعفر (الجـوزى) وسمى جده بالجوزى نسبة الى مشـرعة الجـوز أو إلى فرضـة فيهـا يقال لها جـوزة هى محـلة أو فرضـة فى البصـرة(٧) ، ويقال أن جوزة فرضة على شـاطىء دجلة قريبا من بغداد(٨) .

---

(٥) البداية والنهـاية : جـ ٣ ص ٣٠ .

(٦) مشيخـة ابن الجوزى : ص ٥ .

(٧) مرآة الزمان : جـ ٨ ص ٤٨١ ، شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٠ .

(٨) وفيـات الأعيـان : جـ ٣ ص ١٤٢ .

ولد سنة ثمان وخمسة ،وقيل : سنة تسع ، وقيل : سنة عشر ؛ وكان مولده بدرب حبيب(٩) ، وتوفى والده وهو صغير فكفلته أمه وعمته وتوجها به إلى العلم فحملته عمته الى مسجد أبى الفضل بن ناصر فأولاه عناية كبيرة لما رأى من بوادر نبوغه واقباله وحرصه على العلم وهو صغير ، وحفظ القرآن الكريم وقرأه على جماعة من أئمة القراء .

وسر نجاح ابن الجوزى يكمن فى قوة بديهته وسرعة بادرته وحضور ذهنه ونوادر أجوبته ، مع كثرة محفوظه وسعة روايته(١٠) .

ولقد انقطع ابن الجوزى للدرس ومجالس العلم وترك ما كان أترابه يلهون به من اللعب للتوفر على الحفظ والتوغل فى طريق علوم زمانه وثقافته ، وكان لا يخرج من بيته الا للجمعة ولا يلعب مع الصبيان(١١) .

وهكذا درج ابن الجوزى منذ صغره يحب العلم ، ويشغف بالتحصيل فى كل فنون العلم ، وقد تحدث ابن الجوزى فى كتابه (لفتة الكبد) فقال : « كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون وأنا فى زمن الصبا آخذ جزءا ، وأقعد حجرة من الناس إلى جانب الرقة فأتشاغل بالعلم »(١٢) .

وكانت بغداد مشرفة زاهرة بعلومها وفنونها زاخرة بالعلم والعلماء فنهل ابن الجوزى من هذا المنهل الفياض الذى لا يغيض ، دفعه إلى ذلك حبه للعلم وولوعه به ، وتحدث هو عن نفسه فى كتابه

---

(٩) الذيل على طبقات الحنابلة : جـ ١ ص ٣٠٠ .

(١٠) مقدمة صيد الخاطر : ص ١٦ .

(١١) البداية والنهاية : جـ ١٣ ص ٢٩ .

(صيد الخاطر) فقال : فأقول عن نفسى وما يلزمنى حال غيرى : اننى رجل حبب إلى العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبب إلى فن واحد منه ، بل فنون ه، ثم لا تقتصر همتى فى فن على بعضه بل أروم استقصاءه ، والزمان لا يسع ، والعمر يضيق والشوق يقوى، والعجز يقعد ، فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات(١٣) ٠

وقد أخذ ابن الجوزى العلم عن خاله الشيخ أبى الفضل أكثر من ثلاثين سنة ، وكذلك أخذ الحديث والوعظ والفقه على يد الشيخ الزاغونى، وأخذ الفقه كذلك عن أبى بكرالدينورى، ودرس اللغة على أبى منصور الجواليقى ، والحديث عن ابن عبد الواحد الدينورى ، وقد جمع شيوخه فى مشيخته (ذكر منهم ستة وثمانين شيخا) وكان يحارب أهل البدع ، وقد أعلن عليهم ذلك دون هوادة أو خوف ، وقيل له مرة : قلل من ذكر أهل البدع مخافة الفتن فأنشد :

أتوب إليك يا رحمن مما جنيت
فقد تعاظمت الذنوب

وأما عن هوى ليلى وتركى زيارتها فإنى لا أتوب

وقال له قائل : ما فيك عيب إلا أنك حنبلى ، فأنشد :

وعيرنى الواشون أنى أحبها
وتلك شكاة ظاهر عنك عارها(١٤)

وليس عجيبا أن يجلس للوعظ فى بغداد منذ سنة ٥٢٧ وسنه دون

---

(١٢) لفتة الكبد : ص ٨١ ٠
(١٣) صيد الخاطر : ص ٦٢ ٠
(١٤) الذيل على طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ ٠

العشرين ، وما زال يدرس ويعظ ويؤلف حتى أصبح امام بغداد وواعظها الأول(١٥) .

وكان يحضر مجلسه عامة الناس وخاصتهم ، ويتزاحمون على حضور تلك المجالس حتى لقد حرز الجمع فى بعض المجالس بمائة الف ، وهذا العدد وان كان يدل على المبالغة الا انه يدل دلالة قاطعة على كثرة العدد وشدة الزحام واقبال الناس على مواعظه وحضور مجالسه ، وكان الخليفة يحضر وعظه ومجالسه فى المناسبات ، وكان أبو الفرج يلقى الموعظة على الخليفة ولا يخشى فى ذلك شيئا .

وذكر أنه تكلم يوما بحضرة الخليفة وحكى له موعظة شيبان للرشيد ، وقال فيما قال : يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك وإن أمسكت خفت عليك وأنا أقدم خوفى عليك على خوفى منك(١٦) .

وفى آخر حياته وشى به حساده عند الخليفة فأرسل من أهانه وشتمه وختم على داره ، وشتت عياله وأخذ فى سفينة الى واسط فحبس فى دار هناك ومكث على ذلك الحال خمس سنين وهو يقوه بشئون نفسه من غسل وطبخ ، حتى استطاع ابنه يوسف أن يجتهد وباجتهاده توصل الى أم الخليفة فشفعت للشيخ فأطلق سراحه .

طلبه للعلم :

نشأ ابن الجوزى منذ نعومة أظفاره يحب العلم ويختلف الى العلماء (ولم يكن يفعل مثل الصبيان يلعبون ويلهون ويضيعون أوقاتهم فى اللعب والجرى ، ولكنه أوقف نفسه على الحفظ والتوغل فى العلم ، وقد كان لا يخرج من بيته الا للجمعة ولا يلعب مع الصبيان) .

ولقد وجد ابن الجوزى المناخ مهيأ له والأمور تسير رخاء

---

(١٥) صفة الصفوة : ج ١ ص ١٠ .

(١٦) الذيل على طبقات الحنابلة : ج ١ ص ٤٠٩ .

بريح طيبـة ، فاهله كانوا يشجعونه على العلم وشيوخه كذلك عندما لمسوا فيـه حب العلم والتعلق به وكان أولهم خاله ابن الناصر ، وكذلك وجد بغداد تعج بالعلمـاء والمفكرين ، فقد كانت حاضرة العالم الاسلامى كله تزدهـر بالعلوم وتشـرق بالمعـارف وتتيه بالعلمـاء .

وقد وصـل ابن الجـوزى قمة النضج العلمى حتى أطلق علىـه لقب الحافظ دلالة على مكانته العلميـة الكبيرة ، وقد تحدث عن نفسه فقال : أنا كتبت الحديث ولى احدى عشـرة سنة وسمعت قبل ذلك(١٧)

ولقد برع وتفـوق فى كل علم من العلوم وفن من الفنون ، فكان فى الفقـه اماما يحضـر مجلسه جماعة من الفقهاء الحنابلة .

اما فى التفسـير فكان لا يجـارى ولا يبارى حتى أنه قد فسـر القـرآن الكريم على منبر وعظـه ، وكان يقول : « ما عرفت واعظـا فسر القـرآن كله فى مجلس الوعـظ منذ نزل القـرآن ، فالحمـد لله المنعـم »(١٨) .

ولقد بلغت مؤلفـاته وتصانيفه فى القـرآن وعلومه سبعة وعشرين كتابا كان من أبرزها كتابه الشهير « زاد المسير فى علم التفسير »(١٩)

وكان من المبرزين فى التاريخ المتوسعين فيه ، فكتب وترجم لكبار الصحابة والفقهـاء ، أما فى الوعظ فكان وحيد عصـره ونابغة قـرنه بدليل تسـابق العـامة والخاصة والأمـراء والخلفاء على مجالس وعظه ، وكان النـاس يقصـدونه للتـوبة على يديه ، ولقد حضـر بعض هذه المجالس الرحالة العـربى ابن جبير عند زيارته لبغـداد عام خمسمائة وثمانين من الهجرة ، وقد أطنب فى وصفها وتأثيرها العام فى المجتمع

---

(١٧) المنتظم : جـ ٧ ص ١٨٢ .

(١٨) المنتظـم : جـ ١٠ ص ٢٥١ .

(١٩) مؤلفات ابن الجوزي للعلوجي : ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

حتى قال : « تساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح »(٢٠) ، وقال ابن رجب : « اذا وعظ اختلس القلوب وتشققت النفوس دون الجيوب »(٢١) . وكان ابن الجوزى كذلك أديبا ومحدثا ، ويرتجل ما يريد ارتجاله ، وقد حفظت لنا المصادر بعض أشعار ابن الجوزى ووصفتها بانها حسنة أو فائقة أو لطيفة(٢٢) .

وكان له مؤلفات وتصانيف كثيرة ، وقد ذكرت بعض المصادر أن الكراريس التى كتبها ابن الجوزى لو جمعت وقسمت على أيام حياته لكان له فى كل يوم تسع كراريس(٢٣) .

وقد اختلف المؤرخون فى عدد تصانيف ابن الجوزى ما بين الثلثمائة والأربعمائة مصنف(٢٤) .

ولهذا فقد وصل ابن الجوزى إلى مكانة علمية لم يتوصل إليها أحد قبله وبلغ منزلة لم يرق إليها عالم فقط .

مذهبه :

كان ابن الجوزى على مذهب أهل السنة ومذهب الامام أحمد ابن حنبل وأصحابه ، وكان يذم من يخالفهم ، ويصرح بمذاهبهم فى مسائل الأصول وخاصة مسألة القرآن ويتكلم عنهم كثيرا فى كتبه وكان على حرب دائمة مع أهل البدع والخزافات .

وقال يوما على المنبر : أهل البدع يقولون : ما فى السماء أحد ، ولا فى المصحف قرآن ، ولا فى القبر نبى ، ثلاث عورات لكم (٢٥)

---

(٢٠) ابن جبير : الرحلة : ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
(٢١) الذيل على طبقات الحنابلة : ج ١ ص ٤١٣ .
(٢٢) تذكرة الخواص ، سبط ابن الجوزى : ص ٤٦ .
(٢٣) وفيات الأعيان : ج ٣ ص ١٤١ .
(٢٤) شذرات الذهب : ج ٤ ص ٣٣١ .
(٢٥) الذيل على طبقات الحنابلة : ج ١ ص ٤٠٣ .

وقد كان له خطة ومذهب ظهرا واضحين فى كتابه (تلبيس ابليس) الذى تحدث فيه عن كثير من المفاسد والمبتدعات التى تفشت فى ذلك العصر ومنها البدع الصوفية التى أنكرها ، ولم يقف على حد الانكار ولكنه أعلن عليها حربا لا هوادة فيها .

ومع ذلك فان بعض أصحاب مذهب الامام أحمد نقموا على ابن الجوزى بعض آرائه لأنه لم يكن يتعصب تعصبا كاملا للمذهب ، وكان يرى فى نفسه عدم وقوفه على رأى ، بل لابد من استعمال العقل والفكر .

يقول عنه ابن رجب الحنبلى فى طبقات الحنابلة :

« نقم عليه جماعة من مشايخ أصحابنا ميله الى التأويل فى بعض كلامه واشتد نكيرهم عليه فى ذلك ، ولا ريب أن كلامه فى ذلك مضطرب مختلف ، وهو ان كان مطلعا على الأحاديث والآثار فلم يكن يحل شبه المتكلمين وبيان فسادها » (٢٦) .

وكان دفاع ابن الجوزى عن السنة والمذهب السلفى ومحاربة أهل البدع من الشيعة ، كان سببا فى ايذائه وادخاله السجن ، واهانته ، وختم داره ، ومكوثه في السجن خمس سنين .

أعماله :

أوقف الشيخ حياته على العلم ، فتعلم وأخذ من العلم حظا كبيرا ، وفاق أقرانه ، ولم يتفوق فى علم واحد من العلوم ، وانما تفوق فى جميع العلوم التى كتب فيها حتى علوم الطب .

وكان من مبادئه أن يخدم الاسلام ويرفع راية السنة المحمدية ، فأوقف حياته على محاربة البدع والمبتدعة وأهل الكلام والشيعة ،

---

(٢٦) الوفا بأحوال المصطفي : جـ ١ ص ٥ :

ومن أعماله التى أوقف عليها هى : مجالس الوعظ والارشاد ، فقد كانت تؤتى ثمارها ، وتؤثر فى الناس تأثيرا كبيرا لدرجة أن الناس كانوا يتلقونه بالشموع التى حرزها بعضهم بألف شمعة . وقال ابن القطيعى : انتفع الناس بكلامه فكان يتوب فى المجلس الواحد مائة وأكثر فى بعض الأيام ، وكان يجلس بجامع المنصور يوما أو يومين فى السنة فتغلق المحال ويحرز الجمع بمائة ألف(٢٧) .

وسلمت اليه المدرسة التى للجهة (بنفشا) وكتب فى كتاب الوقف أنها وقف على أصحاب أحمد وأنها مفوضة الى ناصر السنة ابن الجوزى ، وكان يعظ الأمراء والخلفاء ولا يخاف قول الحق لهم لأنه يسعى الى هدف معين هو اعلاء كلمة الله ورفع راية السنة المحمدية ، لا يريد مالا ولا جاها ولا منصبا ولا مكسبا من مكاسب الدنيا.

وقد بنى ابن الجوزى مدرسة بدرب دينار ودرس بها سنة سبعين وذكر أول يوم تدريسه بها أربعة عشر درسا من فنون العلم(٢٨) وزاد عدد المدارس بعد ذلك حتى صارت خمس مدارس كلها فى خدمة العلم والتعليم ، ويكفيه من العمل تلك المصنفات التى ألفها فى كل علم وكل فن .

وفاة ابن الجوزى :

بعد حياة حافلة بالعمل الدائب المستمر لخدمة الاسلام ورفعة شأن السنة المحمدية ومحاربة البدع والمبتدعة مرض الشيخ مدة لا تزيد على خمسة أيام توفى على أثرها رحمه الله رحمة واسعة .

وكانت وفاته ليلة الجمعة الثانى عشر من رمضان بين العشاءين

---

(٢٧) الذيل على طبقات الحنابلة : جـ ١ ص ٤١١ .

(٢٨) الذيل على طبقات الحنابلة : جـ ١ ص ٤٠٥ .

سنة سبع وتسعين وخمسمائة ودفن من الغد فى باب الحرب ، وأجمع من ترجموا له على أن يوم وفاته كان يوما مشهودا فى بغداد ، فقد ازدحم الناس لتشييعه الى مثواه الأخير ، وغلقت الأسواق ، وافطر بعضهم لشدة الزحام والحر ولم يصل الى حفرته عند قبر الامام أحمد بن حنبل الى وقت صلاة الجمعة وحزن الناس عليه كثيرا حتى قيل : لم يخلف بعده مثله (٢٩) .

ذلك هو ابن الجوزى الذى أوقف حياته على العلم والدراسة وخدمة الدين ورفع رايته لمحاربة التيارات المعاوية للاسلام ، حتى ولو كلفته سجنه ونفيه .

ذلك هو ابن الجوزى الامام المحدث الفقيه العالم الذى فسر القرآن على منبره ، المؤلف صاحب التصانيف العديدة الذى التزم فى تفسيره بالمأثور .

جزى الله ابن الجوزى خيرا على ما قدمه للانسانية من ثروة ضخمة وما قدم للاسلام خير ولأهله من نفع .

***

---

(٢٩) صفة الصفوة : جـ ١ ص ١٠ .

الفصل الثانى

مصـــادره :

لقد نهج ابن الجـوزى فى تفسـيره للقـرآن الكريم نهج السلف الصالح وأهــل السنة وقد استقى تفسيره مصادر كثيرة أهمها ما يأتى :

مصـادره فى القـراءات :

كان أهم مصدر للتفسير فى القراءات هم شيوخه الذين درس عليهم وتعلم على أيديهم هذا العلم ، ثم ما لبث أن تفـوق عليهم جميعـا ، وألف فى هذا العلم كتابا يسمى (الاشـارة الى القـراءة المختـارة) أربعـة أجزاء مما يدل على تضلعه وتمكنه من هذا العلم .

والشيوخ الذين تلقى عليهم هم : أبو الحسـن على بن عبد الله الزاغونى ، وأبو منصـور محمد بن عبد الملك بن خيرون المقـرىء ، وأبو عبد الله بن الخياط المقـرىء ، وأبو الفضـل أحمد بن الحسـين المقرىء ، وأبو منصور عبد الرحمن القزاز ، وأبو حفص عمر بن ظفر أحمـد المقـرىء .

وقد قـرأ بالروايات فى كبره على ابن الباقلانى بواسط حين كان منفيـا ، وقـرأ بالعشر على أبى بكر محمـد بن الحسن المـزرفى ، ثم تتبـع بعد ذلك أصحاب القـراءات المشهورة ، وكانت مصـادره فى تفسـيره منهم ، ومن هؤلاء :

ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائى ، وأبو عمـرو ، وطلحـة ، وغيرهم كثير كقتادة والفـراء والأخفش .

مصـادره فى التفسـير :

كان مصدره الأول هو ما أثر عن رسول الله ﷺ من الأخبـار ثم الصحابة رضوان الله عليهم ، من أمثـال على بن أبى طالب وعبد الله

ابن مسعود وأبى بن كعب وعبد الله بن عباس ، ثم ما روى عن التابعين من أمثال ابن جبير وعكرمة وطاووس اليمانى وعطاء بن أبى رباح، وأبى العالية والحسن البصرى ، وقتادة والسدى وابن جريج .

أما المصادر التى نقل عنها ففى طليعتها تفسير ابن جرير ، وكتب الحديث ، وكتابا ابن قتيبة (مشكل القرآن) ، (غريب القرآن) وكتب معانى القرآن ولاسيما كتابا الفراء والزجاج ، والحجاج لأبى على الفارسى و (مجاز القرآن) لأبى عبيدة وكتب ابن الأنبارى فى القرآن وأسماء الله الحسنى للخطابى وغيرها(١) .

وقد أخذ عن غير هؤلاء من تلاميذ الصحابة رضوان الله عليهم كعلقمة ابن قيس ، ومصروق ، والأسود بن يزيد ، ومرة الهمذانى ، وعامر الشعبى ، وقتادة بن دعامة الدوسى ، وهؤلاء من تلاميذ عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

وأخذ كذلك عن عبيدة السلمانى وأبى الطفيل والحسين بن على رضى الله هنه وهؤلاء من تلاميذ على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وأخذ كذلك عن زيد بن أسلم ، وأبى العالية ومحمد بن كعب القرطبى وهؤلاء من تلاميذ أبى بن كعب رضى الله عنه .

فهؤلاء هم : أقطاب التفسير وأعلامه الذين أخذ عنهم وعن الذين تتلمذوا حتى انتهت اليه الرياسة فى التفسير والفتوى ، وكان أكثرهم شهرة هو ابن عباس الذى لقب بالحبر والبحر لكثرة علمه ومعرفته بمعانى كتاب الله .

مصادره فى أسباب النزول :

كان من أول مصادره فى ذلك هم الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد فسروا القرآن بما سمعوه من رسول الله ﷺ وما شاهدوه من الأحداث

---

(١) زاد المسير : جـ ١ ص ٤ .

التى كان القـرآن ينزل بها وأشهرهم عبد الله بن عباس وابن مسعود وعلى بن أبى طالب وأبى بن كعب ومن أكثر هؤلاء رواية ومعـرفة هو: عبد الله بن عباس الذى نشـأ فى بيت النبوة وكان ملازما لرسول الله ﷺ وكان يشهد كثيرا من المواقف والظروف والملابسات والحوادث التى تنزل فيهـا الآيات القـرآنية ، وكان يسـأل الصحابة ويعـرف منهم مواطن نزول القـرآن وتواريخ التشريع وأسباب النزول ٠

ويلى ابن عباس فى المرتبة ابن مسعود ، وقد كان أحفظ الصحابة لكتـاب الله ٠

فقد روى عن مسـروق قال : ـ قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ والذى لا إلـه غيره ما تركت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيما نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تنـاله المطـايا لأتيتـه(٢) ،ويلى ابن مسعود رضى الله عنـه ، فقد كان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعـرفة التأويل ، فعن أبى الطفيـل قال : شهدت عليا يخطب وهو يقول : فوالله لا تسـألونى عن شىء الا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله ، فوالله ما من آية الا وأنا أعلم أبليـل نزلت أم نهـار ، أم فى سهل أم فى جبـل ، وأخـرج أبو نعيم فى الحليـة عن على رضى الله عنـه أنه قـال : والله ما نزلت آية الا وقد علمت فيـم نزلت وأين نزلت(٣) ٠

ويلى هؤلاء أبى بن كعب الأنصـارى الخزرجى وكان سيد القراء وأحد كتاب الوحى ومن أعلم الصحابة بكتاب الله وكان عارفا بأسـرار الكتب القديمة وما ورد فيهـا ، وكان يسـأل رسول الله ﷺ عن الآيات التى لا يعـرف معنـاها ٠

---

(٢) التفسير والمفسرون : جـ ١ ص ٨٥، ٨٦ للدكتور الذهبى ٠

(٣) أسد الغـابة : جـ ٤ ص ١٦ ـ ٤٠ ٠

مصـادره النحـوية واللغـوية :

كان مصدره الأول فى اللغـة والنحو هو أبو منصور الجواليقى الذى تعلم منه الأدب واللغـة وقـرأ عليه كتاب المعرب(٤) .

والوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة وكانت له معـرفة بالنحو واللغـة والعروض وصنف ووزر للمقتفى(٥) .

أما مصـادره التى نقـل عنها فى كتب ابن قتيبـة والفراء والزجاج وأبى على الفـارسى وأبى عبيدة فى كتبهم مشكل القـرآن - وغريب القـرآن وكتب معـانى القـرآن والحجـة ومجاز القـرآن وكذلك كتب ابن الأنبـارى فى القـرآن .

وكذلك الأصمعى والمبرد وابن فارس وأبو معـاذ النحوى - وثعلب والفـراء والكسـائى وإبراهيم بن السرى وأبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى ويونس بن حبيب النحوى .

مصـــادره الفقهيـة :

أما مصـادره الفقهية فكثيرة وتعتبر مصـادره الأولى ، فقد قـرأ الفقه والخلاف والأصول على أبى بكر الدينورى والقاضى بن أبى يعلى، وتتبع مشـايخ الحديث والفقه وكان منهم أبو بكر الأنصارى وأبو القاسم الحـريرى وأبو السعادات المتوكلى وأخوه يحيى وأبو عبد الله البـارع وأبو الحسن على بن أحمد الموحد وأبو غالب المـاوردى وأبو منصـور ابن خـيرون وأبو القـاسم السمرقندى وعبد الملك الكرخوى وأبو سعـد الزوزنى وأبو سعد البغدادى ويحيى بن الطراح واسماعيل بن أبى صالح المؤذن وأبو القاسم على الهـروى وأبو منصور القـزاز وعبد الجبـار ابن منده(٦) .

---

(٤) مشيخة ابن الجـوزى : ص ١٢٦ .
(٥) مشيخة ابن الجـوزى : ص ١٩٥ .
(٦) زاد المسـير : جـ ١ ص ٢٢ ، ٢٣ .

الفصل الثالث

أبرز سمات تفسير ابن الجوزى :

أبرز سمات تفسيره أنه كان يذكر الآية من القرآن ويتناولها بالتفسير السهل الواضح ويذكر سبب نزولها ان كان هناك سبب للنزول وكذلك كان يفسر الآية بالآية ، وهذا ما يسمى تفسير القرآن بالقرآن وكذلك كان يتناول معانى الألفاظ اللغوية بالايضاح والبيان وان كان فيها أكثر من رأى ذكره ، وكان يفسر بالمأثور مع تناول الأحكام الفقهية والتعرض لها والقراءات التى وردت بها الآية ، ومن خلال ذلك نستطيع أن نتناول كل موقف وكل سمة من هذه السمات بشىء من التفضيل .

موقفه من القراءات :

لقد ذكر ذلك فى مقدمة زاد المسير « وقد ألم أيضا بمشهور القراءات وأطراف من شواذها ونقل توجيهها فى العربية عن أئمة هذا العلم »(١) ، ومعنى ذلك أنه كان يذكر مشهور القراءات ثم يذكر التوجيه التى توجه اليه والمعنى الذى يقصد منها على ذلك التوجيه ، فنرى مثلا عند ذكره وتفسيره لقوله تعالى : (**وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم**) الآية ٤٣ من سورة البقرة ، يقول : (لرؤوف) قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم (لرؤوف) على وزن لفعول فى جميع القرآن ووجهها أن فعولا أكثر فى كلامهم من فعل ، فباب ضروب وشكور أوسع من باب حذر ويقظ،

---

(١) زاد المسير : ج ١ ص ١٥٦ .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وأبو بكر بن عاصم (لرؤف) على وزن فعل ، ويقال : هو الغالب على أهل الحجاز ، قال جرير :

ترى للمسلمين عليك حقا كفعل الوالد الرؤف الرحيم

وعند قوله تعالى : (**ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا**) الآية ١٦٥ من سورة البقرة ، قرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى (يرى) ومعناه : لو يرون عذاب الآخرة لعلموا أن القوة لله جميعا ، وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب (ولو ترى) بالتاء على الخطاب للنبى ﷺ ، والمراد به جميع الناس وجوابه محذوف تقديره : لرأيتم أمرا عظيما كما تقول : لو رأيت فلانا والسياط تأخذه ، وانما حذف الجواب لأن المعنى واضح بدونه ، قال أبو على وانما قال (اذ) ولم يقل (اذا) وان كانت (اذا) لما مضى لارادة تقريب الأمر فأتى بمثال الماضى وانما حذف جواب لو لأنه أفحم لذهاب المتوعد الى كل ضرب من الوعيد ، وقرأ أبو جعفر (ان القوة لله) بكسر الهمزة فيها على الاستئناف كأنه يقول : فلا يحزنك ما ترى من محبتهم أصنامهم : « **إن القوة لله جميعا** »(٢) .

وعند قوله تعالى : (**ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون**) الآية ٦٦ من سورة العنكبوت (وليتمتعوا) ، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى باسكان اللام على معنى الأمر ليتمتعوا بباقى أعمارهم (فسوف يعلمون) عاقبة كفرهم ، وقرأ الباقون بكسر اللام فى (ليتمتوا) فجعلوا اللامين بمعنى (كى) فتقديره : كى يكفروا ولكى يتمتعوا فيكون معنى الكلام اذا هم يشركون ليكفروا وليتمتعوا :

---

(٢) زاد المسير : جـ ١ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

أى لا فائدة لهم فى الاشراك الا الكفر والتمتع بما يتمتعون به فى العاجلة من غير نصيب لهم فى الآخرة(٣) .

ذلك هو موقف ابن الجوزى من القراءات يذكرها ثم يذكر المعنى على كل قراءة من تلك القراءات ليكون أبين وأوضح وأدعى الى النفع.

تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة :

رأى ابن الجوزى بثاقب نظره وعميق فكره أن القرآن الكريم قد اشتمل على إيجاز وإطناب وعموم وخصوص وإطلاق وتقييد وما جاء موجزا فى مكان قد بسط فى مكان آخر فكان لابد من تفسير الموجز بالمبسوط فكان يذكر الآية التى تقابل أو تفسر أو توضح الآية التى يقوم بتفسيرها ونلمس ذلك واضحا فى تفسيره ، فمثلا عند قوله تعالى : (**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم**) الآية : ٣٧ من سورة البقرة ، قال : وفى الكلمات أقوال :

أحدها : أنها قوله تعالى : (**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**) الآية ٢٣ من سورة الأعراف ، وفى قوله تعالى : (فتاب عليه) قال : أصل التوبة الرجوع فالتوبة من آدم رجوعه عن المعصية وهى من الله تعالى رجوعه عليه بالرحمة ، وانما لم يذكر حواء فى التوبة لأنها لم يجر لها ذكر ، لا أن توبتها لم تقبل ، وقال قوم : اذا كان معنى فعل الاثنين واحدا جاز أن يذكر أحدهما ويكون المعنى لهما كقوله تعالى : (**والله ورسوله أحق أن يرضوه**) سورة التوبة : آية ٦٣ ، وقوله تعالى : (**فلا يخرجنكما من الجنة فشقى**) سورة طه : الآية ١١٧ (٤) .

ومثلا عند قوله تعالى : (**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**

---

(٣) زاد المسير : جـ ٦ ص ٢٨٤ .

(٤) زاد المسير : جـ ١ ص ٦٩ ، ٧٠ .

وهو اللطيف الخبير) آية ١٠٣ من سورة الأنعام ، ويقول قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) فى الادراك قولان : أحدهما : أنه بمعنى الإحاطة والثانى : الرؤيا ، وفى الابصار قولان : أنها العيون ، قاله الجمهور ، والثانى : أنها العقول ، ففى معنى الآية ثلاثة أقوال : الثالث منها : لا تدركه الأبصار فى الدنيا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس وبه قال الحسن ومقاتل ، ويدل على أن الآية مخصوصة بالدنيا قوله تعالى : « **وجوه يومئذ ناضرة(٢٢) إلى ربها ناظرة(٢٣)** » سورة القيامة ، فقيد النظر اليه بالقيامة وأطلق فى هذه الآية والمطلق حمل على المقيد(٥) ، ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى : (**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما**) الآية ٣١ من سورة النساء ، يقول : اجتناب الشىء تركه جانبا وفى الكبائر أحد عشر قولا :

أحدها : أنها سبع ، فروى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى عند الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »(٦) .

والثانى : أنها تسع ، وروى حديثا عن عبيد بن عمير عن أبيه والثالث : أنها أربع ، وروى كذلك حديثا فى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر ، وروى عن أنس بن مالك ، والرابع : أنها ثلاث ، وروى حديثا عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ ، وروى فى البخارى ومسلم عن أبى بكرة .

---

(٥) زاد المسير : جـ ٣ ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٦) زاد المسير : جـ ٢ ص ٦٢ ، ٦٣ .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى : (**وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا**) الآيات من ٦١ من ٦٦ من سورة الكهف ٠

قوله تعالى : (واذ قال موسى لفتاه) سبب خروج موسى عليه السلام فى هذا السفر ما روى عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ قال : ان موسى قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عز وجل عليه اذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه أن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك(٧) الى آخر الحديث وهو حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين ٠

أسباب النزول :

من الأشياء البارزة والسمات الظاهرة التى كان يتبعها ابن الجوزى فى تفسيره هى ذكر أسباب النزول ، فالآية يتضح معناها اذا علم سبب نزولها ، فنراه يذكر سبب النزول اذا كان للآية أو للسورة سبب نزول وكل ذلك واضح ظاهر فى تفسيره ٠

فمثلا فى سورة آل عمران وسبب نزولها ، يذكر فيها أنها مدنية وأن صدرا من أولها نزل فى وفد نجران قدموا على النبى ﷺ فى ستين راكبا فيهم العاقب والسيد فخاصموه فى عيسى عليه السلام فقالوا : ان لم يكن ولد الله فمن أبوه ؟ فنزلت فيهم صدر (آل عمران) الى بضع وثمانين آية منها(٨) ٠

وقد ذكر سبب نزول سورة الأنفال على أقوال ثلاثة : الأول منها : أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : (من قتل قتيلا فله كذا وكذا ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا) فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ،

---

(٧) زاد المسير : ج ٥ ص ١٦١ ٠
(٨) زاد المسير : ج ١ ص ٢٤٩ ٠

وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءا فأبوا فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت سورة الأنفال رواه عكرمة عن ابن عباس(٩) .

ويذكر فى سبب نزول سورة يوسف قولين : أما القول الأول فروى عن سعد بن أبى وقاص قال : أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ، فأنزل الله تعالى : (**الر . تلك آيات الكتاب المبين**) الى قوله : (**نحن نقص عليك أحسن القصص**) فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى : (**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى**) سورة الزمر : آية ٢٣ ، كل ذلك يؤمرون بالقرآن(١٠) .

ويذكر فى سبب نزول سورة المجادلة قوله تعالى : (**قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها**) ، فقد روى عن عائشة أنها قالت: تبارك الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة فكلمت رسول الله ﷺ وأنا فى جانب البيت أسمع كلامها ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها تقول : يا رسول الله أبلى شبابى ، وفترت له بطنى ، حتى اذا كبر سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى اللهم انى أشكو اليك، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات(١١) .

وأما الآيات فكان كذلك يتتبع سبب نزول كل آية ويذكر فهذا أحرى لتفسيرها وتوضيحها وبيان معناها والأمثلة كثيرة لتتبع الآيات واليك بعضها .

فمثلا عند تفسيره قوله تعالى : (**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه**) سورة آل عمران : آية ١٧٩ ، يقول : ففى سبب نزولها

---

(٩) زاد المسير : جـ ٣ ص ٣١٦ .
(١٠) زاد المسير : جـ ٤ ص ١٧٧ .
(١١) زاد المسير : جـ ٨ ص ١٨٠ .

خمسة أقوال : أحدها : أن قريشا قالت : تزعم يا محمد أن من اتبعك فهو فى الجنة ، ومن خالفك فهو فى النار ، فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن بك ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس(١٢) .

وعند تفسير قوله تعالى : (**ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة**) سورة الرعد : آية ٧ ، اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها : أنها نزلت فى كفار مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بذلك ، قاله ابن عباس(١٣) .

وعند تفسير قوله تعالى : (**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**) سورة عبس : آية ٣٧ ، ذكر أن سبب نزولها ما روى أنس بن مالك قال : قالت عائشة للنبى ﷺ : أنحشر عراة ؟ قال : نعم ، قالت : واسوأتاه ، فأنزل الله تعالى ة **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**) .

الأحكام الفقهية :

كان ابن الجوزى لا يترك حكما من الأحكام الفقهية الا تعرض له وذكر الآراء التى قيلت فيه مع عدم التعرض للأرجح أو الصحيح اللهم الا على لسان القائلين أنفسهم ، وترى ذلك فى كل الآيات التى تحتاج الى أحكام فقهية وأدلى فيها العلماء بآرائهم وخاصة المذاهب الفقهية الأربعة وبعض تلاميذهم من الذين يلونهم ، وترك ذلك واضحا فى كل تفسيره ، وقلما كان يدلى برأيه ، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى : (**ولكم فى القصاص حياة**) سورة البقرة : آية ١٧٩ ، يقول : نقل ابن منصور عن أحمد ، اذا قتل رجل رجلا بعصا أو خنقه ، أو شدخ رأسه بحجر ، يقتل بمثل الذى قتل به ، فظاهر هذا أن القصاص يكون بغير السيف ويكون بمثل الآلة التى قتل بها ، وهو

---

(١٢) زاد المسير : جـ ٩ ص ٥١٠ .
(١٣) زاد المسير : جـ ٤ ص ٣٠٥ .
(١٤) زاد المسير : جـ ٩ ص ٣٥ ، ٣٦ .

قول مالك والشافعى ، ونقل عن حرب : اذا قتله بخشبة قتل بالسيف ونقل أبو طالب : اذا خنقه قتل بالسيف ، فظاهر هذا أنه لا يكون القصاص الا بالسيف وهو قول أبى حنيفة رحمه الله (١٥) .

وعند تفسير قوله تعالى : (**فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر**) سورة البقرة : آية ١٨٤ ، يقول : وليس المرض والسفر على الاطلاق ، فان المريض اذا لم يضر به الصوم لم يجز له الافطار ، وانما الرخصة موقوفة على زيادة المرض بالصوم ، واتفق العلماء أن السفر مقدر واختلفوا فى تقديره ، فقال أحمد ومالك والشافعى أقله مسيرة ثلاثة أيام : مسيرة أربعة وعشرين فرسخا ، وقال الأوزاعى : أقله مرحلة يوم ، مسيرة ثمانية فراسخ (١٦) .

وعند تفسير قوله تعالى : (**اليوم أحل لكم الطيبات**) سورة المائدة : الآية ٥ يقول : فأما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى **وطعامهم وذبائحهم** : هذا قول ابن عباس والجماعة ، وانما أريد بها الذبائح خاصة لأن سائر طعامهم لا يختلف بمن تولاه من مجوسى وكتابى وانما الزكاة تختلف ، فلما خص أهل الكتاب بذلك دل على أن المراد الذبائح ، فأما ذبائح المجوس فأجمعوا على تحريمها واختلفوا فى ذبائح من دان باليهودية والنصرانية من عبدة الأوثان ، فروى ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب ، فقال : لا بأس بها ، وتلا قوله تعالى : (**ومن يتولهم منكم فانه منهم**) المائدة : آية ٥١ ، وهذا قول الحسن وعطاء بن أبى رباح والشعبى وعكرمة وقتادة والزهرى والحكم وحماد ، وقد روى عن على وابن مسعود فى آخرين أن ذبائحهم لا تحل ، ونقل الحزقى عن أحمد فى نصارى بنى تغلب روايتين :

احداهما : تباح ذبائحهم وهو قول أبى حنيفة ومالك .

---

(١٥) زاد المسير : جـ ١ ص ١٨١ .

(١٦) زاد المسير : جـ ١ ص ١٨٥ .

الثانية : لا تباح ، وقال الشافعى من دخل فى دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن لم يبح أكل ذبيحته (١٧) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : « **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة**) سورة النحل : آية ٩ .

ويجوز أكل لحم الخيل ، وانما لم يذكر فى الآية لأنه ليس هو المقصود وانما معظم المقصود بها الركوب والزينة ، وبهذا قال الشافعى وقال أبو حنيفة ومالك : لا تؤكل لحوم الخيل (١٨) .

اللغة والنحو :

لقد اهتم ابن الجوزى اهتماما كبيرا باللغة العربية والنحو ، ويظهر ذلك من خلال تفسيره .

فقد كان يورد الروايات والآراء التى وردت فى تفسير اللفظ وما أيدها من الأشعار العربية والدلالة على معناها الا أنه لم يكن يتعرض لها بالتعليق برأيه ، بل كان يوردها مجردة عن التعليق بمعنى كل قائل واستشهاده ، ثم بالنحو والاعراب ، وفى أحيان كثيرة يعرض للقراءات على الرفع أو على النصب أو خلافه ، فمثلا عند تفسيره لسورة الفاتحة قوله تعالى : (**الحمد لله رب**) يقول : فأما الرب فهو المالك ولا يذكر هذا الاسم فى حق المخلوق الا بالاضافة ، فيقال هذا رب الدار ، ورب العبد . وقيل : هو مأخوذ من التربية .

قال شيخنا أبو منصور اللغوى : يقال : رب فلان ضيعته يربها ربا ، اذا أتمها وأصلحها فهو رب وراب ، قال الشاعر :

برب الذى يأتى من الخير انه اذا سئل المعروف زاد وتمما

قال : والرب يقال على ثلاثة أوجه : أحدها : المالك ، يقال :

---

(١٧) زاد المسير : ج ٢ ص ٢٩٥ .

(١٨) زاد المسير : ج ٤ ص ٤٣١ .

رب الدار ، والثانى : المصلح ، يقال : رب الشىء ، والثالث : السيد المطاع ، قال تعالى : (**فيسقى ربه خمرا**) سورة يوسف : آية ٤١ والجمهور على خفض باء رب .

وقرأ ابن السميقع عيسى بن عمر بنصبها ، وقرأ أبو رزين العقيلى ، والربيع بن خيثم ، وأبو عمران الجونى برفعها(١٩) ، وترى الاعراب والخلافات النحوية واضحة جلية عند تفسير قوله تعالى (**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا**) سورة آل عمران : ٣٠ ، قال الزجاج : نصب اليوم بقوله (ويحذركم الله نفسه) فى ذلك اليوم ، قال ابن الأنبارى : يجوز أن يكون متعلقا بالمصير ، والتقدير والى الله المصير يوم تجد ، ويجوز أن يكون متعلقا بفعل مضمر ، والتقدير : اذكر يوم تجد ، وفى كيفية وجود العمل وجهان : أحدهما: وجوده مكتوبا فى الكتاب ، والثانى : وجود الجزاء عليه(٢٠) .

ومثلا عند تفسير قوله تعالى : (**ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول**) سورة النساء : آية ٨١ ، قوله تعالى : (ويقولون طاعة) نزلت فى المنافقين كانوا يؤمنون عند رسول الله ﷺ ليأمنوا فاذا خرجوا خالفوا ، هذا قول ابن عباس ، قال الفراء : والرفع فى طاعة على معنى أمرك طاعة .

قوله تعالى : (بيت طائفة) ، قال ابن قتيبة : والمعنى فاذا برزوا من عندك أى خرجوا ، أى : قالوا وقدروا ليلا غير ما أعطوك نهارا ، قال الشاعر :

أتونى فلم أرض ما بيتوا وكانوا أتونى بشىء نكر

---

(١٩) زاد المسير : ج ١ ص ١١ .

(٢٠) زاد المسير : ج ١ ص ٣٧٢ .

والعرب تقول : هذا أمر قد قدر بليل ، وفرغ منه بليل ، ومنه قول الحارث بن حلزة :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

وقال بعضهم : بيت بمعنى يدل بدل وأنشد :

وبيت قولي عند الملك قاتلك الله عبدا كفورا(٢١)

فاننا نرى اللغة والاعراب واشعار العرب فى تفسير تلك المفردات اللغوية ورواية الشعر للاستشهاد وتفسير الألفاظ هى الطريقة المشهورة لابن عباس رضى الله عنه الذى قد نقل عنه ابن الجوزى ومن أهم مصادره وكذلك نجد المعانى البلاغية واضحة بارزة .

ومثلا عند تفسير قوله تعالى : (**كأن لم يغنوا فيها**) سورة الأعراف : آية ٩٢ فيها أربعة أقوال : القول الأول : كأن لم يعيشوا فى دارهم ، قاله ابن عباس والأخفش ، قال حاتم طىء :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى

فكلا سقانا بكأسيهما الدهر

فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

قال الزجاج : معنى غنينا عشنا - والتصعلك - الفقر - والعرب تقول للفقير صعلوك .

والثانى : كأن لم يتنعموا فيه ، قاله قتادة .

والثالث : كأن لم يكونوا فيها ، قاله ابن زيد ومقاتل .

والرابع . كأن لم ينزلوا فيها ، قاله الزجاج ، قال الأصمعى - المغانى - المنازل : يقال غنينا بمكان كذا أى نزلنا به ، وقال ابن قتيبة : كأن لم يقيموا فيها .

---

(٢١) زاد المسير : ج ٢ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

ومعنى غنينا بمكان كذا : أقمنا ، قال ابن الأنبارى ، وانما كرر قوله (**الذين كذبوا شعيبا**) للمبالغة فى ذمهم ، كما تقول : أخوك الذى أخذ أموالنا ، أخوك الذى شتم أعراضنا(٢٢) .

ومثلا عند تفسير قوله تعالى :(**قالت رسلهم أفى الله شك**) سورة ابراهيم : آية ١٠، يقول : هذا استفهام انكار والمعنى لاشك فى الله أى فى توحيده (يدعوكم) بالرسل والكتب (ليغفر لكم من ذنوبكم) قال أبو عبيدة ـ من زائدة ـ كقوله : (**فما منكم من أحد عنه حاجزين**) سورة الحاقة : آية ٤٧ ، قال أبو ذؤيب :

جزيتك ضعف الحب لما شكوته

وما أن جزاك الضعف من أحد قبلى(٢٣)

ومثلا عند تفسير قوله تعالى : (**لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما**) سورة الواقعة : الآية ٢٥ ، يقول : فان قيل التأثيم لا يسمع فكيف ذكره مع المسموع ؟ فالجواب : أن العرب يتبعون آخر الكلام أوله ، وان لم يحسن فى أحدها ما يحسن فى الآخر ، فيقولون : أكلت خبزا ولبنا ، لا يؤكل ، وانما حسن هذا لأنه كان مع ما يؤكل ، قال الفراء أنشدنى بعض العرب :

اذا ما الغانيات برزن يوما

وزججن الحواجب والعيونا

قال : والعين لا تزجج وانما تكحل فردها على الحاجب لأن المعنى يعرف(٢٤) .

---

(٢٢) زاد المسير : جـ ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢٣) زاد المسير : جـ ٤ ص ٣٥٠ .

(٢٤) زاد المسير : جـ ٨ ص ١٣٨ .

الفصل الرابع

موقفه من الاسرائيليات

لقد جاء فى مقدمة تفسيره (زاد المسير) فى الجزء الأول منه ما يظهر موقفه من الاسرائيليات التى ذكرها وأوردها فى تفسيره ، فقد ذكر فى المقدمة « ومن ايراد طائفة غير قليلة من الأخبار الاسرائيلية الغريبة التى أغنانا الله عنها بما هو أصح منها وأنفع وأوضح وأبلغ وغالبه مما لا يتعلق به كبير فائدة ولا حاصل له مما ينتفع به فى الدين(١) ٠

فنراه قد روى بعض الأحبار الاسرائيلية عن رواة اشتهروا برواية تلك الأخبار من أمثال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، والسدى وغيرهم كأبى صالح والكلبى ٠

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى : (**وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**) سورة الأنبياء : آية ٨٣ ، ٨٤ ٠

يذكر قصصا طويلة عن أيوب لا يتسع المقام لذكرها ، رواها عن وهب بن منبه ، وهى رواية غريبة لا يصدقها العقل أو المنطق ولا تليق بمقام الأنبياء لما فيها من المنافاة لمقامهم عند الله ٠

وقد ذكر هذه القصة فى تفسيره فى الجزء الخامس من زاد المسير من ص ٣٧٥ ، الى ص ٣٧٨ ٠

ومثلا عند تفسيره قوله تعالى : (**وإنى مرسلة إليهم بهدية**)

---

(١) زاد المسير : ج ١ ص ٥ ٠

سـورة النمـل : آية ٣٥ ، يـرد فى ذلك قصة طويلة هى أقرت ماتكون الى الخيـال .

يقول : انها بعثت ثلاث لبنـات من ذهب فى كل لبنة مائة رطل وياقةتو حمـراء طولها شبر مثقوبة ، وثلاثين وصيفا وثلاثين وصيفـة وألبستهم لباسـا واحدا حتى لا يعرف الذكـر من الأنثى ثم كتبت اليه انى بعثت اليك بهدية فأقبلها وبعثت اليـك بياقوتة طولها شبر فأدخل فيهـا خيطـا واختم على طـرفى الخيط بخاتمـك وقد بعثت اليـك بثلاثين وصيفـة وثلاثين وصيفا فميز بين الجوارى والغلمـان ، فجـاء أمير الشياطين فأخبره بما بعثت اليـه فقال له : انطلق فافرش على طريق القـوم من باب مجلس ثمانية أميال فى ثمانية أميال (لبنـا من الذهب(٢)) .

وهكذا حتى نهاية القصـة وقد نسبها الى ابن عباس وقد علـق ابن كثير رحمه الله عليهـا قائلا : والله أعلم أكان ذلك أم لا ؟ وأكثـره مأخوذ من الاسرائيليات ، ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى : (**فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعـل لى صرحـا**) سورة القصص : آية ٣٩ نراه قد ذكـر رواية غريبة عن بنـاء الصـرح والعمال والفعـلة وأنهم خمسون ألف بناء سوى الأتباع الى آخر الرواية، ورمية بالنشابة وأنهـا رجعت ملطخة بالدم فقال : قتلت الـه موسى(٣) .

وقد روى هذه الرواية الطبرى عن السدى ورواها السيوطى عن السدى وقد علق عليها القرطبى قائلا : والله أعلم بصحة ذلك .

ومثـلا عند تفسيره لقوله تعـالى : (**وهـل أتاك نبؤا الخصم إذ تسـوروا المحـراب**) سـورة ص : آية ٢٢ . فقد روى عن وهب أنه

---

(٢) زاد المسـير : جـ ٦ ص ١٧٠ .

(٣) زاد المسـير : جـ ٦ ص ٢٢٣ .

قال : كانت الحمامة من طيور الجنة ، وقال السدى : تصور له الشيطان فى صورة حمامة ، قال المفسرون : انه لما تبع الحمامة رأى امرأة فى بستان على شط بركة لها تغتسل ، وقيل بل على سطح لها ، فعجب من حسنها ، فحانت منها التفاتة فرأت ظله ، ففضت شعرها فغطى بدنها فزاده ذلك اعجابا بها ، فسأل عنها فقيل هذه امرأة أوريا وزوجها فى غزاة فكتب داود الى أمير ذلك الجيش أن ابعث أوريا الى موضع كذا وكذا وقدمه قبل التابوت وكان من قدم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح عليه أو يستشهد(٤) .

الى نهاية القصة التى لا تليق بشخص عادى فما بالك بنبى من أنبياء الله ، وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهى حد الفرية على الأنبياء(٥) ، ومثلا عند تفسيره قوله تعالى : (**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه ، جسدا ثم أناب**) سورة ص : آية ٣٣ .

يقول : ولقد فتنا سليمان أى ابتليناه وامتحناه بسلب ملكه (وألقينا على كرسيه جسدا) أى على سريره (جسدا) وفيه قولان:

أحدهما : انه شيطان ، قاله ابن عباس والجمهور ، وفى اسم ذلك الشيطان ثلاثة أقوال : أحدها : أنه صخر ، والثانى أنه آصف الى آخر هذه القصة التى ذكرها ، وسبب الابتلاء أنها كانت فى خصومة قضى فيها بالحق الا أن هواه كان مع أهل زوجته الذين كانوا طرفا فى القضية ، وقد ذكر هذه القصة فى الجزء السابع من ص ١٣٢ الى ص ١٣٦ .

---

(٤) زاد المسير : جـ ٧ ص ١١٢ ـ ١١٧ .
(٥) التفسير والمفسرون : جـ ١ ص ٤٧٩ .

وقد علق على هذه الأقوال بعض المفسرين كابن كثير وقال انها من الاسرائيليات ، وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٣ : وأما ما يحكى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن فى بيت سليمان عليه السلام فالله أعلم بصحته ، وقد علق ابن كثير لعى قصة اعطاء جرادة الخاتم حين ذهابه الى الخلاء باسناده الى ابن عباس ولكنه يقول - ولكن الظاهر أن تلقاه - ان صح عنه من أهل الكتاب .

وهكذا نرى أن جميع تلك القصص قد نقلها ابن الجوزى عن الاسرائيليات وحشا بها تفسيره حشوا وفيها ما لا يليق فى حق انسان عادى فكيف بالأنبياء ؟

* * *

الفصل الخامس

ترجيحه بعض الآراء على بعض

قلما كان لابن الجوزى نظرة ترجيحية فى الأقوال أو ترجيح رأى على رأى آخر ، وانما كان يسرد الآراء سردا على لسا ن قائليها دون أن يعقب عليها أو يكون له رأى فيها ، وقد ذكر ذلك فى مقدمة التفسير : « وكذلك لم يحاول ترجيح رأى على رأى أو معنى على معنى ، ولا ناقش ما يحكيه من أقوال الا فى مواضع قليلة »(١)

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : **« ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا)** سورة ص : آية ٣٣ ، وبعد أن يذكر الأقوال التى يراد بها الجسد يقول :

والمفسرون على القول الأول ونحن نذكر قصة ابتلائه على قول الجمهور(٢) ، وهو يقصد بالقول الأول الذى قاله ابن عباس والجمهور أن الذى ألقى على الكرسى شيطان وهذه من نظراته الترجيحية القليلة .

وبعد ذلك تذكر القصة كيفية ضياع الخاتم ، ويذكر ابن الجوزى كل تلك الأقوال الصحيح منها والدخيل من أقوال أهل الكتاب والاسرائيليات فلا يعلق عليها بشىء مع أهمية هذا لأنه يمس نبيا من الأنبياء لهم العصمة وهم منزهون عن كل ما لا يليق ، وجمهور المفسرين لا يخفى عليهم أن هذه الروايات من تلفيق أهل الكتاب(٣) .

---

(١) زاد المسير : جـ ١ ص ٥ .

(٢) زاد المسير : جـ ٨ ص ١٣٥ .

(٣) ابن جرير الطبرى ومنهجه فى التفسير : أ. د. بكر اسماعيل .

ومن نظراته الترجيحية القليلة أيضا أنه علق على قصة الشيطان الذى استولى على ملك سليمان ، هل كان يأتى نساء سليمان فبعض الأقوال ذكرت أنه كان يأتيهن فى زمن الحيض ، والقول الآخر أنه لم يقدر عليهن ، وقد علق عليها ابن الجوزى قائلا : وهذا هو الصحيح ، أى عدم اتيانه لهن ٠

ومن نظراته الترجيحية أيضا : أنه علق على قصة الشيطان واستيلاء الشيطان على ملكه بأنه آصف الذى قال لسليمان عندما فتن : أنا أقوم مقامك الى أن يتوب الله عليك ، فقام فى مقامه وسار بالسيرة الجميلة ، وقد علق ابن الجوزى على هذا بقوله : وهذا لا يصح ولا ذكره من يوثق به ٠

وقد كانت هناك أشياء تمس العقيدة فلم يتعرض لها بالرأى أو الترجيح مثل وجود الأوثان فى بيت سليمان وعبادتها وخصوصا وأن العبادات استمرت أربعين يوما كما تقول الرواية ، وقد علق عليها بعض المفسرين الآخرين ٠

وكذلك فى قصة امتحان داود عليه السلام وما ذكر من تلك القصة الطويلة والافتراءات التى تقول برؤيته لامرأة أوريا وحبه لها ورغبته فيها ، ويذكر ذلك كله ابن الجوزى دون أن يتعرض له بالتعليق أو التكذيب وخصوصا وانه مروى عن وهب بن منبه وهو ممن اشتهروا بالاسرائيليات ولا يزيد عن قوله (هذا قول وهب بن منبه)

وكذلك فى قصة أيوب عليه السلام وما كان من امتحانه وابتلائه بمرضه واعراض الناس عنه وسبب هذا الابتلاء وقد رويت كذلك عن وهب بن منبه ، وقيل عنها : ان بها غرابة ، وقيل كذلك : انها من الاسرائيليات ، ولم يعلق ابن الجوزى برأيه أو يدلى بدلوه ٠

ومن النظرات الترجيحية القليلة التى أبداها عند تفسير قوله

تعـالى : (**لولا أن راء برهـان ربه**) سـورة يوسف : آية ٢٥ ، قال : وفى البرهان ستة أقـوال :

أحدها : أنه مثل له يعقوب ، روى ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال : نودى يا يوسف أتزنى فتكون مثـل الطـائر الذى نتف ريشـه فذهب يطير فلم يستطع ، فلم يعط على النداء شيئا ، فنودى الثانيـة فلم يعط على النـداء شيئا فتمثـل له يعقوب فضرب صـدره ، فقـام فخرجت شهوته من أنامله .

والثـانى : أنه جبريل عليه السلام ، **والثالث :** أنها قامت الى صنم فى زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال لها يوسف : أى شىء تصنعين؟ قالت أستحى من الهى هـذا ان يرانى على هذه السـوأة ، فقـال : أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ، ولا أستحى من الهى القائم على كل نفس بما كسبت ، فهو البرهان الذى رأى .

والرابع : أن الله بعث اليه ملكا فكتب فى وجـه المـرأة بالدم ، (**ولا تقـربوا الزنى إنه كان فاحشـة وساء سبيلا**) الاسراء آية ٣٢ .

والخامس : أن سيده دنا من الباب ، **والسادس :** أن البرهان هو علم ما أحـل الله مما حـرم الله ، فـرأى تحريم الزنا ، قال ابن قتيبة: رأى حجة الله عليه وهى البرهان(٤) ، فكان من تعليق ابن الجوزى عليه بأن قال :

وهذا هو القول الصحيح وما تقدمه فليس بشىء وانما هى أحاديث من أعمـال القصاص ،وقد أشـرت الى فسادها فى كتاب (المغنى فى التفسير) وكيف يظن بنبى كريم أنه يخوف ويرعب ويضطر الى ترك

---

(٤) زاد المسـير : جـ ٤ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

هذه المعصية وهو مصـر هذا غاية القبح (٥) ٠

تلك هى النظرات الترجيحية التى أبدى بعضها ابن الجـوزى ، وهى قليـلة اذا قيست على غيره من المفسرين الذين يدلون بآرائهم أو يرجحون بعض الآراء على بعضها الآخـر بما لهم من خبرة وعلم دون أن يتركوا القـارىء يتخبط فى تلك الأقـوال لا يدرى الصحيح منهـ أو غير الصحيح أو الأحسن أو الأفضـل ٠

***

(٥) زاد المسـير : جـ ٥ ص ٣١٠ ٠

أهـم المـراجع بايجـاز

١ ـ القـرآن الكـريم ٠

٢ ـ ابن جرير الطبرى ومنهجه فى التفسير ، د٠ محمد بكر اسماعيل: دار المنـار ، سنة ١٩٩١ م ٠

٣ ـ البداية والنهاية ، لعماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير : ط٠ بيروت ، سنة ١٩٦٦ م ٠

٤ ـ التفسير والمفسرون : الشيخ الذهبى ٠

٥ ـ الحافظ الهكارى ومنهجه فى التفسير : د٠ على حسن محمد سليمـان ٠

٦ ـ الذيل على طبقات الحنابلة ٠

٧ ـ زاد المسير لأبى الفـرج بن الجـوزى ٠

٨ ـ صيد الخاطر : أبو الفرج بن الجـوزى ٠

٩ ـ شذرات الذهب لابن عماد الحنبلى ٠

١٠ ـ صفـة الصفـوة ٠

١١ ـ مشيخـة ابن الجـوزى ٠

١٢ ـ الوفا بأحـوال المصطفى ٠

١٣ ـ وفيـات الأعيـان لابن خلكان ٠

***

الخـاتمـــة

بعد هذه السياحة حول شخصية فذة وواحد من أعـلام التفسـير لا أعتقد أننى وفيتــه حقــه ولكنه جهد المقل وحسبى أنى ألفت الأنظار الى تفسـيره ومدى أهميته فى ســاحة البحث والدراسة .

أهــم النتــائج

١ ــ يعتبر الحافظ ابن الجوزى ــ بارعا فى اللغــة والتفسير والحديث النبــوى .

٢ ــ أقام صــرح تفسيره الشامخ على منهج أهــل السنة والجماعة ورجح مذهب الامام أحمد بن حنبل وعرض لكلام وآراء الحنابلة .

٣ ــ الاقلال من الاسرائيليات بالنسبة الى غيره من التفاسير .

٤ ــ اهتمامه بأسبــاب النزول ، فالآية يتضــح معنــاها اذا علم سبب نزولها ، وكل ذلك واضح ظاهر فى تفسيره .

٥ ــ الاهتمام الخاص (بالأحكام الفقهية) .

ما يؤخــذ عليــه

يؤخذ على ابن الجوزى : سرده للآراء سردا دون ترجيح أو تعقيب أو مناقشــة ما يحكيه من أقــوال الا فى مواضع قليــلة ، ولعــله كان متحفظــا من الاكثار من التفســير بالرأى ، فان كان ذلك حقــا فتلك محمدة لا منقصــة .

وكذلك ذكــره لبعض القصص الدخيل والاسرائيليات دون تعليــق أو توهــين .

ومع هذا فلا نقلل من شــأن ابن الجــوزى ولا ننقص من مكانته العلميــة ، فهذه أمــور كثيرا ما ترد فى كتب التفسير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلــه وصحبه وسلم .

د٠ على حسن محمــد سليمــان